«٩»

محمد بن سعيد بادجانة

إمارة الشحر - الأمير سعيد بادجانة - محمد بن سعيد - محاولة احتلال عدن - استيلاء آل طاهر على الشحر - بادجانة يعود إلى الشحر - وفاة الأمير محمد

❖ **إمارة الشحر:**

تعاقبت على الشحر في تاريخها الإسلامي حكومات متعددة تستقل بالأمر فيها تارة وتخضع لملوك اليمن فيها تارة أخرى، وقد تكون الشحر أحياناً هي عاصمة الإمارة، بينما تكون أحياناً أخرى تابعة لإمارة تتخذ من مدن حضرموت الأخرى عاصمة لها، وقد عرفنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن سالم بن إدريس الحبوظي كيف كانت هذه المدينة التاريخية والمنفذ البحري المهم ميداناً لصراع الطامحين من ملوك اليمن وظفار وحضرموت.

وقد كانت الشحر تطلق في القديم على المنطقة الساحلية الواقعة ما بين عُمان وساحل حضرموت جميعها، ويطلق على ساحل حضرموت خاصة «الأسعاء».

أما الشحر بمعنى المدينة المعروفة اليوم فلا يعرف بالضبط تاريخ تأسيسها، ولكن المنقول أن ملك اليمن من بني رسول في القرن السابع الهجري وهو الملك المظفر، جدد بناءها سنة ٦٧٠هـ، وكانت قبل ذلك «أخصاصاً» أي أكواخاً وبيوتاً حقيرة.

وقد كان يحكم الشحر في عهد الملك المظفر الأمير أبو محمد عبدالرحمن بن راشد بن إقبال بن فارس بن محفوظ بن محرم بن فارس، قال عنه الجندي: كان أحد ملوك العرب دهاء وكرماً وشجاعة، يحب الفضلاء ويخالط العلماء، ما قصده شاعر أو غيره إلا أكرمه، وشاعره المنقطع لمدحه أبو حنيف العدني.

تولى إمارة الشحر سنة ٦٢١هـ، وكان يؤدي الخراج لملك اليمن، ولما استولى نور الدين الرسولي على الشحر وحضرموت أناب على الشحر رجلاً من الغز، وأضاف إليه نقيباً يُدعى الأصبحي، واستدعى إليه الأمير عبدالرحمن بن راشد، فقدم عليه بهدايا قدمها إليه.

ثم إن النقيب الأصبحي قتل الوالي الغزي واستقل بحكم الشحر بعد سنتين من وصولهما، فندم الرسولي على عزله عبدالرحمن بن راشد واستدعاه وخلع عليه وأمره أن يسير إلى الشحر، فلما علم الأصبحي بوصوله هرب إلى مقدشوه، ودخلها الأمير عبدالرحمن سنة ٦٣٨هـ فأحسن إدارتها.

ولما تولى المنصور نور الدين الرسولي قدم إلى خلفه المظفر بهدايا جليلة، من بينها قطعة كبيرة من العنبر، فكافأه الملك المظفر مكافأة حسنة وأمّره على عمله ورده إلى الشحر، وقد بقي حاكماً عليها مرضياً عنه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٦٦٤هـ ودفن بالشحر، وقد خلفه في الإمارة ابن أخ له يُدعى راشداً، فلبث حاكماً بها حتى نقم عليه المظفر أشياء، فاعتقله سنة ٦٧٠هـ، وأودعه سجن زبيد حتى مات، وقرر له رزقاً معلوماً يقوم به وبأهله مدة حياته.

وهكذا كانت الشحر تخضع لحكام اليمن بواسطة أمرائها من الحضارم أو بغيرهم من النواب يعينون من قبل الحاكم في اليمن، وكان حكام اليمن في هذا العهد هم بنو رسول الذين امتد حكمهم فيها من سنة ٦٢٠هـ إلى

سنة ٨٥٨هـ حيث تلاشى أمرهم وقام بالأمر بعدهم المشايخ آل طاهر بن معوضة بن تاج الدين من بلاد رداع، واستولوا على عدن وتهامة وبلاد تعز في سنة ٨٥٨هـ، وكان أول حاكم منهم هو الملك الظافر عامر بن طاهر، أما آخر ملوكهم فهو عامر بن داود الذي حكم إلى سنة ٩٤٥هـ.

❖ الأمير سعيد بادجانة:

الأمير سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي، كان يحكم الشحر في النصف الأول من القرن التاسع الهجري، وكان حازماً يقظاً حليماً مهاباً من جميع الناس، وقد اهتم عقب توليه الشحر بتحسين حالتها الاقتصادية، فبعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها إلى القدوم بقوافلها إلى الشحر لينافس بذلك الأسواق الحضرمية الأخرى.

واستطاع الأمير سعيد أن يوطد لحكمه في الشحر بما كان يقوم به من أعمال مجيدة أطلقت الألسنة بالثناء عليه، فقد سار في الناس بالعدل وساسهم بالحكمة والحزم حتى أدركته المنية، فخلفه في الحكم ابنه محمد بن سعيد.

❖ محمد بن سعيد:

نشأ الأمير محمد بن سعيد كما ينشأ أبناء الأمراء شاعراً بشرف أصله وطيب أرومته، وارثاً من أبيه صفات الكرم والشجاعة والتيقظ وبُعْد النظر والعدل وحب الخير، وكانت أمه إحدى سيدات آل معاشر، معروفة بالذكاء ورجاحة العقل وحسن السياسة.

وبذل الأمير محمد كل مجهود لتحصين البلاد ضد الطوارئ المحتملة وتحسين حالتها التجارية وتوطيد علاقاته بالقبائل المجاورة، آخذاً حذره من تسرب الدعاية المعادية إليهم، فنجح في ذلك إلى حد بعيد، واشترى كثيراً من المراكب الشراعية لتنشيط الحركة التجارية بين الشحر وغيرها من البلدان التي لها سوابق صلات تجارية بالشحر، وقد ساعدته الثروة التي

تركها له والده على القيام بكثير من الإصلاحات، وشجعته على التفكير في توسيع مملكته الصغيرة الضيقة الحدود، وكانت دولة آل رسول القوية العظيمة الشأن في اليمن وحضرموت قد اختفت من الميدان وحلت محلها دولة آل طاهر التي لا تزال في بداية عهدها لم يستفحل أمرها بعد.

❖ محاولة احتلال عدن:

كان آل طاهر قد احتلوا عدن - كما سبق - في بداية النصف الثاني من القرن التاسع الهجري كما احتلوا تهامة اليمن وبلاد تعز، وكانت أحوال عدن خاصة في بداية حكمهم من الاضطراب والاختلال بحيث تشجع أولي المطامح في الاستيلاء عليها، أضف إلى ذلك أن جماعة من آل كلد اليافعيين قدموا إلى الشحر إثر الخصومة والحرب التي حدثت بينهم وبين إخوانهم من آل أحمد في عدن بسبب التنافس بينهم على النفوذ فيها، وشجعوا الأمير بادجانة على احتلالها وتعهدوا له بالمساعدة بكل ما في استطاعتهم.

ورأى الأمير بادجانة أن الفرصة قد سنحت لتحقيق أحلامه، فجمع قوما خَليطا مَّن قومه ومن يافع والحموم والمهرة وسافر بهم في تسعة مراكب شراعية متجها إلَى عدن، وكانت أمه قد عارضته في هذه الفكرة ونصحته بأن يعدل عن إعداد هذه الحملة لأنها كانت مرتابة في نجاح الخطة التي اعتبرتها مغامرة، فلم يلتفت لكلامها ولم يأبه لنصيحتها.

وعلم أمير عدن من قبل آل طاهر بنبأ هذه الحملة، فكتب إلى السلطان عامر بن طاهر - وكان باليمن - يطلب منه المدد، فقَدِم السلطان عامر بنفسه على رأس جيشه متأهباً للقاء الأمير بادجانة الذي منته نفسه بالهجوم على عدن، وكان هذا لا يزال في سفنه البحرية لم يبدأ هجومه بعد.

وحدث خلاف بين الأمير بادجانة وبين رؤساء جيشه، فقد كان رأي هؤلاء التراجع بمراكبهم والتظاهر بالتقهقر والعودة، حتى إذا اطمأنت حامية عدن وأمنت الهجوم عادوا فأنزلوا جنودهم إلى البر على حين غرة وتقدموا

لتنفيذ خطتهم فيكون ذلك أضمن لنجاح الحملة، ولكن الأمير أبى إلا الإسراع بالهجوم.

وبينما هم في أخذ ورد هبت عاصفة شديدة لم يتمكن الجيش المهاجم معها من التحكم في سفنه، فغرقت بعض السفن ومن بينها السفينة التي تحمل الأمير فنجا بنفسه إلى الساحل حيث ألقى القبض عليه جنود السلطان عامر بن طاهر وأخذوه أسيراً هو ومن معه سنة ٨٦٢هـ.

وسرعان ما بلغ نبأ هذا الحادث إلى الشحر، فجمعت أمه أعيان الشحر واستشارتهم في أمر ابنها، فترددوا وخافوا من سطوة آل طاهر، فحزمت أمتعتها وسافرت إلى عدن حيث اجتمعت بالسلطان عامر وكلمته بشأن ابنها ليطلق سراحه، فتردد في أول الأمر ثم خضع لتأثير المرأة فأجاب طلبها وأطلق سراحه، فتجهز الأمير بادجانة عائداً مع أمه إلى الشحر.

استيلاء آل طاهر على الشحر:

تركت محاولة الأمير بادجانة الاستيلاء على عدن أثراً سيئاً في نفس السلطان عامر بن طاهر، وكان رد الفعل لتلك المغامرة الفاشلة أن أخذ السلطان عامر يعد العدة لاحتلال الشحر وطرد الأمير بادجانة منها، فجمع عسكراً كثيراً جهزهم من عدن بواسطة البحر سنة ٨٦٥هـ، فهاجموا الشحر واستولوا عليها بعدما فر منها الأمير إلى حيريج من بلاد المهرة.

وتقول رواية أخرى: إن الأمير بادجانة ظل أسيراً لدى السلطان عامر بن طاهر عامين كاملين في عدن حتى سلمت أمه الشحر فأطلقوه لها ولم تطل مدته بعد إطلاقه، ومهما اختلفت الروايتان فإنه ليس هناك خلاف في أن السلطان بدر بن محمد بن عبدالله الكثيري لما علم باستيلاء آل طاهر على الشحر طفق يتصل بالسلطان عامر كتابياً ويظهر له التودد حتى وثق منه، وكتب له عهدا عًلى الشحر سنة ٨٦٧هـ، فقدم السلطان بدر بن محمد

إلى الشحر ودخلها مستخلفاً عليها من قبل دولة آل طاهر، وكان ذلك أول حكم آل كثير للشحر.

❖ بادجانة يعود إلى الشحر:

وتقول بعض الروايات: إن الأمير بادجانة ظل قابعاً في قريته الصغيرة «حيريج» بساحل المهرة يتحين الفرص لاسترداد الشحر من آل كثير حتى تجمعت لديه قوة كافية فهجم بها على الشحر براً وبحراً سنة ٨٨٣هـ واحتلها بعد أن انسل منها السلطان بدر الكثيري إلى حضرموت حيث عاد إلى شبام مركز السلطنة الكثيرية في ذلك العهد.

وإذا صح ما تقوله الرواية السابقة من أن الأمير محمد بن سعيد لم تطل به حياة بعد إطلاق سراحه فإن الذي استرد الشحر من آل كثير قد يكون أحد أفراد العائلة من أمراء آل بادجانة.

وقد استمر حكم الشحر في أيدي الأمراء من آل بادجانة إلى مستهل القرن العاشر الهجري، وقد كانت المدينة أثناء هذه المدة عرضة للغزو الكثيري، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، ولم تكن مؤهلات القائمين بالأمر بعد وفاة الأمير محمد بن سعيد كما ينبغي، فلم يستطيعوا القيام بأعباء السلطنة، فثارت القبائل وقطعت الطرق وفقد الأمن وساءت حالة البلاد واشتد استياء الأهالي، وكانت النهاية استيلاء السلطان جعفر بن عبدالله بن علي الكثيري عليها سنة ٩٠١هـ، وضمها إلى السلطنة الكثيرية نهائياً.

❖ وفاة الأمير محمد:

لا نعرف بالضبط تاريخ وفاة الأمير محمد بن سعيد بادجانة، فقد رأينا كيف اختلفت الروايات في أمر عودته من عدن، في حين قالت رواية: إنه لم تطل مدته بعد إطلاق سراحه، وقد زعمت إحدى الروايات أنه مات متأثراً بالسم الذي دسه له أحد أعوان آل طاهر ملوك عدن، وقد أبدت أمه

من الثبات ورباطة الجأش ما أدهش الناس، فقد برزت للناس تخبرهم بوفاة ابنها والدموع تتحدر من عينيها، وهي محتفظة بهدوئها متجلدة للمصيبة، مظهرة الرضا بقضاء الله.